

## الفضاء في لبنان

### بزمَن الامراء الشهابيين

بِطَلْم عَيْسَى اسْكَندَر المَلُوف ، مؤلّف تَارِيخ  
الاسْر الشَّرْقِيَّة وعضو المَجْمَع الطَّبِيْعِي العَرَبِي

### تُوطُة

خفا. ان الامراء الشهابيين كانوا خلفاء الامراء المعينين في حكم لبنان . فتولاه الشهابيون من سنة ١٦٩٧-١٨٤٢ م . وكانوا يصطافون في دير القمر وبتدن ، ويشتون غالباً في مدينة بيروت . وكان مقرّ الايالة عكا ، ثم صيدا ، الى ان اتخذ الحاكم بيروت كرسياً له سنة ١٨٤١ . ومقاطعاتهم هي اقليم الحروب ، وجزين ، والتفاح ، في الجانب الجنوبي . وجبل الريحان ، والبقاع ، والتمن ، في الجانب الشرقي . وكسروان ، والقنوج ، وبلاد جبيل ، والبترون ، وجبة المنيطرة ، وجبة بشرابي ، والكورة ، والزورية ، في الجانب الشمالي . وكان سنجق جبل الشوف سبع مقاطعات هي الشوف ، والمناصف ، والرقوب ، والجرد ، والتمن ، والشطار ، والغرب . وكان يحكم البلاد ، بصد الامير ، الاقطاعيون من مقدمين ، ومشايخ ، واعيان . وكانت الايالة تضيق وتنع مجب الشؤون السياسية . وللامراء والمقدمين والمشايخ امتيازات تجب سراعاتها . وكانت الدعاوى ترفع الى الاقطاعي ، فاذا لم ينصف المتداعين فالى الحاكم الاعلى . وهكذا كانت شؤون الرعية وادارتها بانتظمة اصطلح عليها بما فصلته في كتابي : « دراني القطوف »<sup>(١)</sup> ، وفي ما كتبه من مقالات « تاريخ لبنان في ايام الحرب »<sup>(٢)</sup> وفي

(١) راجع «دراني القطوف» للطبع من الصفحة ٢٤٥-٢٦٧ (٢) راجع كتاب

« تاريخ الامر الشرقي » المخطوط .

ولقد امنت في البحث عن القضاء مطوّلاً لتعريفه في جميع ادواره من القديم الى يومنا . والآن اقتصر على ذكر اشهر القضاة من مسلمين ودرّوز ومسيحيين في عهد الاسراء الشهابيين فاقول :

١

## الشيخ احمد البربر

فاضي بنانه بزمن الاصغر يوسف الشهابي<sup>١)</sup>

ان ما نشر في مجلة « المشرق » القراء في هذه الايام الاخيرة من مقالات القضاء في لبنان ذكّرني بمقالة لي ، بل برسالة مطوّلة في تاريخ القضاء . عند المسلمين من صدر الاسلام الى يومنا ، نتمت منها خلاصة في مجلة « المعامي » الزحلية في بضع سنوات ، حتى وصلت الى القضاء في زمن الدولة العثمانية . ووقفت الباقي لانني اريد نشره مطوّلاً لتطوره في ذلك العهد الى زمن متصرفية لبنان ثم الى يومنا . ولقد جمعت كثيراً من الاحكام والروايق والقوانين واشباهها ، ولا سيما في زمن قائمبي مقام النصارى والدرّوز وما بعدهما ، كما وقع لي من الاوراق القديمة ، فحفظتها بين مخطوطاتي التي جددتها بعد بيع قسم منها للجامعة الاميركية في بيروت .

وبهذه المناسبة اقول كلمة في بعض كبار القضاة والشعراء والمؤلفين ، منهم المرحوم الشيخ احمد البربر الدمياطي البيروتي ، الذي جمعت آثاره من نظم ونثر ووقفت على مؤلفاته . فوضعت له ديواناً مطوّلاً فيه المقاطيع والقصائد الرائعة . وهذه لمعة من ترجمته وقضائه في لبنان :

« لبنان : مباحث علمية واجتماعية » المطبوع من ص ١٤٢-١٤٨ في بحث « الاخلاق والعبادات » لصاحب هذه المقالة .

(١) مقالة مقتضبة من « الاخبار المدونة والمروية في انساب الامر الشرقي » في ١٢ مجلداً ، ومن « مناووس الدرر في ادباء القرن التاسع عشر » لكاتب المقالة .

## ترجمته البربر

ان اسرة البربر اصلها بنو القحف في بيروت ، وقيل ان احد اطبا-  
الملقب بالبربر، على لغة ايطالية في ذلك العهد<sup>(١)</sup>، كان يختلف الى جدهم فلقب  
به ، وترك اسم القحف . وهي من اشرف المسلمين يلقب افرادها بالاسياد ،  
ولا تزال بقيتها في بيروت ، وفيها اديبا- معروفون اشهرهم المترجم له .

ولد السيد احمد ابن السيد عبد اللطيف ابن السيد احمد الشرف البربر في  
دمياط (من القطر المصري) لان اياه كان تاجراً فيها ، وذلك سنة ١١٦٠ هـ  
(١٧١٧ م) وكان نابغة بالحفظ والذكا . تروى عنه اخبار غريبة في الاستظهار  
والمحاضرة . درس الفقه والحديث والادب على الشيخ عبد الحي بن ابي بكر  
بن احمد من آل فتح الله البيروتي اصلاً ، الدمياطي مولداً وسكناً ، فنشأ  
المترجم له فقيهاً اديباً نظم الشعر في الثلاثة عشرة من سنينه واجاد في حن  
الحيال ، ودقة التصور ، ورشاقة التراكيب ، حتى كان نظمه من السهل المستع ،  
ولازم اشياخاً من كبار العلماء في القطر المصري ، منهم السيد محمد مرتضى  
الزبيدي ، شارح الاحياء والقاموس ، ولم يكف بشايع القطر المصري الاعلام  
فجاء بيروت ودمشق سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٦ م) ولم يجد في بيروت ما كان  
يظن من العلماء الاعلام فنظم فيها بيتين يدلان على استيائه من تأخر العلم فيها ،  
فقصد دمشق للاخذ عن علمائها ، فاتصل بالشيخ مصطفى الرحمتي ، ومدح دمشق .  
ولكن وصول محمد بك ابي الذهب اليها ، واضطراب جبل الامن فيها ،  
اضطره ان يعود الى بيروت ، فانشأ مكتباً للتعليم وشهر بتفقه وادبه فيها .

فسمي خبره الى الامير يوسف الشهابي ، حاكم لبنان وبيروت في تلك الايام ،  
فطلبه اليه وحاول اتناعه بتولي القضاء ، فتنصل حتى اكراهه عليه . قبل ان  
يكون قاضياً بعد اللتيا والتي ، وبعد ان كتب على الامير الحاكم صكاً يتضمن  
شروطاً متى اخل بها ، فليس له عليه سبيل في البقاء قاضياً .

(١) والبربر هو الملتق الذي كان يرسل اللق ويجمع المرضى ويفصد احبائنا ويضع  
الضادات ونحوها .

ومن اهم تلك الشروط الكثيرة: انه لا يتعرض للدعوى بمد انفصالها والحكم بها في مجلس قضاة . ولا ينتقضا بل يعضدها وينفذها .  
ومنها: انه اذا كان الحق عليه يمثل امر الشرع .  
ومنها: انه لا يكرهه على لبس عمامة ولا فرجية مما كان يلبسه القضاة .  
ومنها: انه ييمت رجلاً من اتباعه يجلس في المحكمة ليأخذ ما على الدعوى من السحت المشهور بين القضاة .

فامثل الامير ذلك بطيبة خاطر . ولم يبد اقل نقض لشرط من شروط البربر الذي كان يؤد ان يجلس الامير باحدها ليترك القضاء لانه كان مكرهاً عليه . فاخذ يحاول ان يعتذر الى الامير اعذاراً كثيرة ليسمح له بتترك القضاء والعودة الى التدريس والتأليف ، ومشافهة العلماء ، مما كلف به وانتطع له . فلم يمره الامير اذناً صاغية حتى عيل صبر البربر فقال يتشكى من ذلك المنصب: قد عدنا ، وما عدنا لني ، وحكنا بامر رب السماء ، فشكا الناس حكنا ، ولمسري ، فل من يرتضي بكم القضاء!

وقال يهجو المرتشين وقد اجاد ما شامت بلاغته :

ولم أد في البرية مثل شخصير اذا (برطنة) اصلحت ثأته  
مجردلة كميزان السلاكي نيل كفتاه لنا لانه

وقال مستجيراً يصف احوال القضاء :

راني زماني ا بجهد ، فن ذا اروم ومن اقصد ؟  
واوقني في القضاء القضاء ، وما كنت احب بوجود  
وثابفة كرب لاثالها تراني لموتي ، الردي احمد .  
وحسي انقلاب صديقي لها عدوا اذا فاته المقصد .  
فياظنها الذل والابلا ، وظاهرها الغر والسودد .  
وذاليس دأبي ولا ديدني ، ولا ارتضيه ، ولا عهد  
وصب على المره تكليف امورا خلاف الذي يهد!  
وقد ضفت ذرعاً ، ولكنني بغير النيين استجد

وهكذا بقي البربر يتشكى ويتظلم من منصبه مجاهراً في كل مجلس واجتماع يكرهه للبقاء في عمله هذا . والامير يمرض عن سماع شكواه ولا يقيله . فكان البربر قاضياً ومفتياً في تلك الايام ، مشهوراً بانصافه وحسن آدابه

في منصبه ، وخشيته من الظلم والتعامل ، وانصرافه الى العدل ونصرة المظلوم ، واجراء الامور في مجاريها النظامية . ولقد وقفت في مباحثي عن الاوراق القديمة على احكام وفتاوى ووثائق تدل على براعته بالفقه والادب ، ووضع الاشياء في محلها . فصرف وقتاً كان فيه مكرهاً على العمل ، ولكنه لم يضجر ولا وارب ولا ترتف . ولم يَدَّ من الامير ما يحمله على الانحجاب واغاضته ، وهو الذي يداريه ويحترمه ويعزز مقامه .

تقدم له المرائض المختلفة مستقيلاً ، فلم يقبلها . واخيراً عمد الى نظم مقصورة لطيفة املتها عليه القريمة الوفاة وضيق الذرع ، فحملها اليه وانشده اياها متأثراً ، قال منها :

ننَّه ، أخيه ، نأذا المي	وقد بلغ الليل اعل الرى !
تواريت في جنح ليل الذنوب	ولم ترَ اشراق فجر الالحى ،
فكبت رضىت بترى قاضياً	وفوفك بالقهر قاضي السما !
وكيف عجزت بحمل التيسر	وتقوى على حمل حق الملا !
وامسحت بالظلم في غاية	ورمته ما لها منتهى !
اكلت الشور ، وختت الشور	وبت الاجور ، بسوق الردى
وفرعون كان بذا مبتد	وفلك ذا خبر المبتدا
لما الله ما نك من لفة	حلت ، ثم مرّت بسم المشى .
فانت كدود كدود الحرير	بكدو وحللكه ما نبي ،
وكالشمع يمرق اجزاءه	ليتحف بالنور ذات السوى .
اما في الاى ملقوا عبرة	لثلك دلت على ما ناي !
فابن القضاة ؟ وابن الملوك ؟	وابن الخلى ؟ وابن الخلى ؟
وابن الاحاديث في سردها	وقد ابانتك بدم القضا ؟
فان قلت : ابي امرؤ عادل	فلا تنس من حام حول الحدى
ودره المناسد تفديبه	على جلب مصلحة يرتضى !
وان قلت : ابي امرؤ مكره	عليها فدونك زحج القضا
وكيل من تحلقهم للسدى	احاط بما كان تحت الثرى ،
فددرزق الطير في وكره	وخصن الجين بيطيب الفذا .
وعش باليسر ، واكل الثمير	وترك الحرير ، وليس الببا
فذلك امرؤ من بيع ديشك	يا خافلاً ، بدقّ الذقّ !

وهكذا الى آخرها وهي بليغة مؤثرة . فلما سمعها الامير اعترته رعدة

وخشوع ، وحن قلبه وغلبته الدموع . فلم يستطع البقاء على اصراره بدم  
اقالة البربير ، فاقاله وعين له ما يقوم بكفائه . فسر وشكره ونظم فيه  
قصائد ومقاطع منها قوله :

اميرنا اكرم من حاتم له بنان ضاق عنها القضاء ،  
بجلمه ادركت ما اشتبهى ، وقد كفا في الله شر القضاء .

ومنها قوله في قصيدة غيرها :

امير عظيم له رتبة على غيره صبة المرتقى ،  
قصرت ثنائي على رصفه ، واخطيته في الردى موثقا ،  
ولا غرو في كونه وارثا ثنائي دون الردى مطلقا ،  
فقد هاعتق القلب من كرهه ، وحق الرءى لمن اعتقا !

### آثار افلامه

ان للبربير مؤلفات نفيسة تفرغ لها بعد تركه القضاء ، وكان متصلاً بادباء  
عصره وقضائه وقته في بيروت ودمشق ، وله مثالة عند الحكام ونوادير  
معهم مثل احمد باشا الجزائر ، والامير يوسف الشهابي ، وسليمان باشا والي  
عكا ، وكذلك عند الادباء والاعيان مثل الشيخ شاهين تلحوق ، ومخايل  
البحري الحصي ، والشيخ عمر البكري ، والشيخ احمد الاحمدي المصري ،  
 وغيرهم . وله معهم مساجلات ونوادير وله مؤلفات ورسائل منها : « الشرح  
الجلي على بيتي المرصلي » مما طبع . واما ما بقي مخطوطاً فكثير منها بديعية  
ومقامات ومناظرات وشرح قصائد وتاريخ سليمان باشا والي عكا ، ولم  
اعثر على نسخة منه مع كثرة بحثي عنه .

واما اشعاره ورسائله فقد جمعها في (ديوان كبير) من مظان مختلفة ،  
ومن مخطوطات نادرة شاردة ، وهو معد للطبع فيه بدائع نظمه من ذلك  
قوله في الشعر الفقهري :

تقول الروى : قد فاته ارث جده من الفضل والتوى وذلك مثبت .  
فقلت لهم : شرط الموارث عندنا وجود حياة ، وهو بالجهل مبت .

وقوله عاقداً قول حسان بن ثابت الانصاري لعلي بن ابي طالب عند قتل

عثمان بن عفان :

بامن غذا لوداد اهل م زسان متمرصا  
لا تكفن لتكبر ان السكوت اخو الرضا

وقوله في الصلح بين المتخالفين ، وتظرف ما شاء :

ولم أرَ اللف من صلح توسط بين حبيبي ويني  
تلف حتى حكم النوم اذ سرى بين جفني وانان عيني

وقوله في الحكم والشهادة متفناً :

لاحكم عندي كحكم الصارم الذكر  
وعادل الرمح لا تلقى شهادته  
اذ فيه قطع تراخ البدو والمضرب -  
فمنده خير من باطن البشر  
لصطل الحرب مثل السمع والبصر

وقوله في التشكي :

لا تلح من يتشكى ، ان التشكي دراء  
واوجع الضرب ما لم يكون فيه بكاء

وقوله في القاضي مضماً :

وقاض باع أخراه بئر الراح والنشوة  
لنا احكامه قالت : رشا الحاجة الرشوة ١١

وهكذا كان هذا الفقيه مشهوراً طلف في بلاد العرب واجتمع بطلانها  
وتخرج عليه كثيرون من الفقهاء والادباء ، واستجازه آخرون ونظم في اغراض  
مختلفة . ومكن في صالحة دمشق سنة ١١١٥ هـ ( ١٧٨٠ م ) الى ان توفي  
فيها سنة ١٢٢٦ هـ ( ١٨١١ م ) عن بنات توفين صغاراً ، لا كما ذكر العلامة  
الاب لويس شيخو اليسوعي في « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » :  
( ١ : ٧٦ ) ان جد المرحوم مصباح البربير هو السيد احمد هذا ، بل هو من  
سلالة شقيقه السيد محمد الذي هو جد البربيريين الحاليين ، والله اعلم .

( ١ ) راجع ما نشرته من شعره في مجلة المشرق ( ٢١٦٦ : ٦ ) وفي مجلة الآثار ( ٣ : ٢٤٤ )  
من ديوانه المخطوط الذي جمته له .

